تمثلات الحدث الاجتماعي السيرذاتي في رواية (بوابة بغداد) لأحمد خلف

الكلمة المفتاح تمثلات – السيرذاتي – بوابة]

البحث مستل من رسالة ماجستير

أ.م.د.نوافل يونس الحمداني **حسين علي يوسف**

جامعة ديالى/كلية التربية للعلوم الإنسانية **المديرية العامة لتربية ديالى**

drnyby@yahoo.com **husain_ali_yousif@yahoo.com**

الملخص

إن رواية (بوابة بغداد) استدعتْ بشكلٍ مباشر أحياناً وغير مباشرٍ أحياناً أُخرى الواقع المعيش للمبدع بتجربته الحياتية ، وقد وظّف مُتخيله السردي فنياً حتى بدا ما هو غير مرئي من حياته مرئياً للمتلقي ، فكانتْ الرواية تشفُّ وتدلُّ على مرجعية ذاتية تماهَتْ فنياً في قولبة الرواية لكونها رواية غير معنية بالانعكاس الذاتي وحده ، بل تُشكّل (السيرة الذاتية) بحدثها الاجتماعي (حرب الخليج الأولى وتداعياتها) زاوية النفوذ إلى عالمه الروائي .

في رواية (بوابة بغداد) يروي أحمد خلف عبر سارده ، وقناعه في الرواية (إبراهيم أحمد ياسين) سيرته الذاتية التي هي صورة مُصغرة لسيرة مجتمعٍ عاش ويلات حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩١م ، واقتسم أبناؤه المصير الواحد في أحداثٍ اجتماعية ذاتية مُؤطّرة بإطارِ زمني محدد هو زمن حرب الخليج الأولى ، فعمل الروائي في الرواية جاء مكملاً لعمل المؤرخ ، إذ المؤرخ ينظر للأحداث نظرة فوقية كلية لا يعبأ بجزئيات الواقع الحياتي اليومي للمواطن العراقي في ظل الحرب، أمّا الروائي أحمد خلف فتعقب تلك الجزئيات ، وقيدها في دفتر كبير هي يومياته، ثم فجّر فيها مكامن القيم الإنسانية تخييليّاً في روايته (بوابة بغداد) .

المقدمة

إنّ الكاتبَ مهما ابتعد بالعمل الروائي يبقى داخل سيرتهِ الاجتماعية ، ولابُدّ له وهو يكتبُ صوراً اجتماعية مختلفة يشعرُ بقوة بتلكَ السيرة .

وتقتربُ الروايةُ المُضمّنة تجربة الروائيّ الاجتماعية من اهتمام القارئ عندما تتبين له واقعيتها في الحياة ، واقترابها من نفسِهِ ؛ لأنّها تمثل حالة إنسانيّة يشتركُ فيها مع المبدع ،

فالإنسانُ اجتماعيٌّ بطبعهِ ، ويتولّد لديه فضول المعرفة ، والكشف عنها باقتراب التجربة من الواقع ، وتمثّلها لصدقِ المعاناة التي تُعَدُّ عامل جذبٍ للإنسانِ الآخر ، فالمتلقي هو المساحة التي يرى فيها المبدع أثر تجربته مرئية ، ومُشاهدة أمامه ، كما يشعرُ بالارتياحِ من خلال مشاركةِ الآخرِ بما يُعانيه .

لقد وَظَّف الروائي العراقيّ أحمد خلف ذاكرته الشخصية التي هي جزء من الذاكرة الجمعية للمجتمع العراقي في كتابة روايتِه (بوابة بغداد) التي تسرد يوميات مواطن عراقيّ أثناء حرب الخليج الأولى سنة ١٩٩١م مُتتبعة معاناتِهِ في توفير مكان آمن لعائلتِهِ يقيهم خطر القصف المستمر لطائراتِ التحالف الدولي ، فضلاً عن معاناتهِ في توفير الغذاء والماء لهم ، والدواء لوالده العجوز .

لقد توصل الباحث من خلال لقاءاته واتصالاته بالروائي أحمد خلف أنَّ بطل الرواية يحيلنا على الروائي نفسِه ، وأنّ أحداثَ الرواية أحداثٌ حقيقيّة عاشها الروائيّ في ظل حرب الخليج الأولى ، وأنّ هذه الرواية توثق سيرة كاتبها من جانب ، ومن جانبٍ آخر سيرة مجتمعه الذي عاش معه ويلات هذه الحرب ؛ لذلك ارتأى الباحثُ أنْ يُسميَ هذا الحدث بالحدث السيرذاتيّ الاجتماعيّ .

- مدخل :

تكمنُ أهمية الحدث في البناء الروائيّ في أنَّهُ ((كلُّ ما يؤدي إلى تغيير أمرٍ ، أو خلقِ حركةٍ ، أو إنتاجِ شيءٍ ، ويمكن تحديد الحدث في الرواية ، بأنَّهُ لعبة قوى متواجهة، أو مُتحالفةٍ))[١] ، إذْ هو يُنَمّي الموضوعات ، ويُحرّكُ الشخصيات ، ويُنشطُ الأزمنةَ ، ويُحيي الأمكنَة ، فهو الوقود الذي يضمنُ لِماكنةِ السردِ أنْ تستمرَّ .

وتستمدُّ الروايةُ مادتها من الحياةِ نفسها ، فتتشكّلُ هذه المادة أحداثاً تنمو ، وتتصاعد على وِفقَ نظامِ صوغٍ خاص بالنصّ الروائيّ ، فالفنُ الروائيّ يمنحُ الكاتبَ حريةَ امتياحِ أحداثَ روايتهِ من مصادر عديد منها : الخياليّة ، أو الواقعية ، أو كلتاهما ، والتجربة الذاتية أقربُ تلك المصادر ، فلا قواعدَ صارمة ، ولا ضوابطَ مانعة ، إنّها – الرواية – ((تصنعُ قواعدها من حريتها))[٢] .

وأحمد خلف وجد ذاكرتَهُ معيناً لا ينضبُ لأحداثٍ عاشها ، أو شارك فيها ، أو كان شاهداً عليها ، فالذاكرةُ كما يقول : ((الخزين الذي لا ينضبُ دائماً ، هناك ما هو قادرٌ على تحريكها مثل حجرٍ يُلقى في بركةٍ ساكنةٍ))[٣] .

ونجد أنّ خلفاً قد أذِنَ لذاكرتِهِ بالدخولِ في روايته (بوابة بغداد) دخولاً مُنظّماً بانفصالِ أحداثٍ عن ذاكرتِهِ الشخصية كمادةٍ خام ، وإدخالها في الهيكل الحكائيّ لتلك الرواية ، وبين مرحلتي (الانفصال والإدخال) مرحلة وسيطة هي مرحلة (التخييل الروائي)، والتخييل هو ((القدرة المسؤولة عن استحضار الصور المرئية مفردة ، أو مجتمعة في الذهن ، والقدرة على توليف هذه الصور توليفاً جَذَّاباً ، والقدرة على توليفها توليفاً مخادعاً للعقل ، وهي قدرة الفنان على إسقاط مشاعرهِ فوق موقفٍ ، أو شخصية إسقاطاً ينتجُ عن التفاعل المُتعاطف معها ، وهو المَلكة التي تُمكّن الذهن من إبداع رموزٍ للمفهومات المجردة))[٤] ، ويتمُّ في هذه المرحلة تأهيل الحدث السيرذاتي الخام فنيّاً ؛ لِيمتلك طاقةً تعبيريةً ، وإشعاعاً من التأثير ينفذ في مسماتِ المُتلقي ، فيتحرك فيه الوعي والشعور ، فالرواية السيرذاتية خطاب مُوَجّه إلى الآخر ، ولابُدّ من مرور محمولها السيريّ بالآخرين ((فبتكوّن ردود الفعل الإيجابية ، أو السلبية يعرف الكاتب قدر ذاته ، وحياته في المجتمع الذي لا يمكن له أنْ يتجاهلَهُ))[٥] .

وإبداع الكاتب هو المسؤول عن تأهيل ، وتفعيل تجربته الذاتية التي تتشكّل من جزئيات ربّما لا يَعبأ بها الإنسان العادي ، ولكنّها تفعل فعلها المؤثر جماليّاً وفكريّاً عندما تمرُّ عبر قناةِ الإبداع .

إنَّ الروايةَ مدونة سردية تتكئ على نحوٍ واضح على الواقع الحياتي الذي تتشكّلّ منه أحداث المجتمع كبيرها وصغيرها ، عظيمها وحقيرها ، وإذا كان الروائي أحد فواعل هذا الحدث ، أو أحد مشاهديه ، أو مشاركيه ، فلابُدّ لهذا الحدث أنْ ينتظم في منظومة تجاربه الشخصية ، أو يُدوّن في لائحة سيرتِهِ الذاتية .

ولا تخلو حياة الروائي أحمد خلف من تجارب اجتماعية متنوعة مُفعمة بالأحداث المُفرحة ، والمؤلمة ، فهي خليطٌ من الأمزجة والمواقف التي عاشها الروائي ، وهذه التجارب لا تتكفئ على ذاته ، بل إنّها تتحرك بداخله ؛ لِتتحول إلى خطاب مُؤلَّف ، ومُوجّه للآخرين ، وتقترب الرواية المُضمّنة تجربة الروائي الاجتماعية من اهتمام القارئ عندما تتبين له واقعيتها في الحياة ، واقترابها من نفسه ؛ لأنّها تمثل حالة إنسانية يشترك فيها مع المبدع ، فـ((الكاتب لا يتأثر بالمجتمع فحسب ، بل يؤثر فيه ، والفن لا يحاكي الحياة فقط ، بل إنّه يُشكلها ، وقد يصوغ الناس حياتهم على شاكلة أبطال وبطلات الروايات))[٦] ، فالمتلقي هو المساحة التي يرى فيها المبدع أثر تجربته مرئية ، ومُشاهدة أمامه ، كما يشعر بالارتياح من خلال مشاركة الآخر بما يعانيه .

- (بوابة بغداد) رواية سيرذاتية :

إنّ رواية (بوابة بغداد) للروائي العراقي أحمد خلف الصادرة عن دار الشؤون الثقافية العامة بطبعتها الأولى في بغداد سنة ٢٠٠١م لا تُقرأ على أنّها رواية فحسب ، لكنها في حقيقة الأمر تحمل جزءًا من سيرة مؤلفها .

تمثل هذه الرواية سيرة (أحمد خلف) أيام الحرب التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها على العراق سنة ١٩٩١م ، إذ بدأتْ الحرب بقصفِ المدن العراقية بالطائرات والصواريخ ، ولاسيما العاصمة بغداد التي يسكنُ المؤلف فيها ، والذي لم يفتهُ كتابة يومياته أثناء الحرب التي عاش أجواءها مع عائلته التي دونها في دفتر كبير ، ثُمَّ بعد ذلك حَوَّلها إلى رواية اسماها (بوابة بغداد)[٧] ، فهي رواية سيرذاتية مُركّزة ينقل فيها للقارئ من خلال قناعه وسارد أحداثه (إبراهيم أحمد ياسين) أيامه التي قضاها مع عائلته تحت جحيم الطائرات والصواريخ ، يقول في الرواية : ((هذه الأيام الحُبلى بالأحداث الجِسَام ، كيف لي أنْ أكتبها ، والحقُّ تصعبُ عليّ متابعة ما يجري ، ويحصل خلال أيامٍ لم أشهدْ مثلها فيما مضى من أيام الرّخاء))[٨] ، فهو عبر سيرته الذاتية في هذه الرواية يريد تصوير بشاعة الحرب ، وويلاتها ، وحجم الدمار الذي أحدثته في بغداد ، وكذلك تصوير معاناة العراقيين في ظلّها عبر التحامه بتجربتها وآلامها ، يقول : ((أنا لا أفرز نفسي بعيداً عن آلام شعبي ... وأنظر إلى الحرب على أنّها ظاهرة اجتماعية مُنحرفة ، ولا إنسانية))[٩] ، فـ(بوابة بغداد) رواية حرب بمعنى أنّها عَبَّرت في مضمونها السردي، وعبر تشكّل بنيتها النصية عن عالم الحرب كما عاشه بطل الرواية / المؤلف ، وهو يتبادل الحياة مع أمكنة الرواية ، وأزمنتها ، ورواية الحرب خطاب ينفتح على الحرب نفسها ؛ لِيصنعَ أنموذجه المُغاير ، ولكنْ بفاعلية اللغة التي لا تضطهدُ أحداً بعيداً عن النفعية ، والتعبويّة ، وتحشيد مظاهر القتل والتخريب ، إنّها باختصارٍ روايةً الحياة الاستثنائية التي ترى الوجود شيئاً مهماً غير قابلٍ للموتِ والتدمير[١٠] ، تمكّن (أحمد خلف) من خلال توظيف تجربته الشخصية في الرواية من رصد الفاعلية الإنسانية وهي تواجه محنتها العميقة إزاء الوجود المهدد بالمحو .

في رواية (بوابة بغداد) يتوحّد السارد مع الشخصية المحوريّة التي تحيلنا على شخصية الروائي التي لا تتطابق معه ، بل تتشابه وكالآتي : (السارد = الشخصية / الشخصية ≠ الروائي) ، وهذا يفسر غياب الميثاق السيرذاتي (الذي يقضي بتطابق المؤلف، والسارد والشخصية الرئيسة)[١١] ، وحضور الميثاق الروائي (الذي يقضي بعدم التطابق)[١٢]

، ولا يفترض عدم تطابق الميثاقينِ تقاطعهما ، فمن ناحيةٍ عامةٍ يصبحُ الحديثُ عن نوعٍ من التوازي الذي لا يتنكّر للتداخل ، ولا يرفضه ، ففي كلّ أثرٍ أدبيّ سرديّ ثمة درجة من حضور العنصر الذاتي سواءٌ تَمَّ الأمرُ على مستوى الرؤية ، والمنظور ، أو تمَّ على مستوى الصيغة ، والأسلوب ، أو تَمَّ على مستوى مكونات المتن السرديّ(١٣) .

نجدُ أنَّ الهيكل التنظيمي للمبنى الروائي يتشكّل من أحداثٍ اجتماعية سيرذاتية مصدرها يوميات الروائي التي كتبها سلفاً عن الأيام الأولى للحرب ، أمّا التخييّل الروائيّ فتدخل في إضافةِ بعض الرُّتوشِ ، والملامح التنكريّة للشخصية المحوريّة ؛ لِنفي التطابق بينها ، وبين شخص الروائيّ الفاعل الواقعيّ للأحداث ، فالتخيّل أعطى للشخصية اسماً مغايراً ، ومهنة مغايرة لاسم ، ومهنة المؤلف ، وهيكلاً أُسريّاً يتشابه مع أُسرةِ الروائي ، وهذا ما أعلنه في الصفحة الأولى من الروايةِ ، وكأنّها بطاقة تعريفيّة ، يقول : ((أنا إبراهيم أحمد ياسين ، أمضيتُ في عملي مدرساً للجغرافية عشرين عاماً متواصلة ... بعضها كان عسيراً مُؤذياً لي ولأسرتي الصغيرة المكونة من زوجتي وفتاتينِ أصغرهما ريم في الحادية عشرة من عمرها ، أمّا الكبرى مريم فقد كانت في السابعة عشرة، وولدي ماجد أكبر الفتاتينِ))(١٤) ، وكأنّ الروائي في تقديمه الشخصيّة مبكراً يريدُ أنْ ينفضَ يدَهُ من (الميثاق الروائي) الذي ألزمه به النوع الأدبي الذي يكتبُ فيه ، لِينثالَ السردُ بعدها بأحداثٍ حقيقية عاشها (الروائي/الشخصية) ، أو شاهدها ، ((وتمارس اللغة لعبة استرجاع ذكية ، فهي تستحضر وقائع مَضَتْ لكنها تُعيد إنتاجها ، وكأنّها تقع الآن))(١٥) ؛ لِذلك نجد أنّ (بوابة بغداد) رواية سيرذاتية اجتماعية ، لأنَّها عَبَّرت في مضمونها السرديّ ، وعبر تشكّل بنيتها النصيّة عن عالم الحرب ، وتداعياته الاجتماعية كما عاشه الروائي في الواقع وأسقطه على بطل روايتهِ ، فقد يكتبُ الروائي جزءًا من سيرتِهِ الذاتية بهيئة رواية ؛ لكي يُسقطُ على البطل كلَّ مشاعرَه ، ورؤاه ، فيتحركُ البطلُ بحريةٍ تامةٍ من دونِ أنْ ينالَ كاتب الروايةِ أيّ شعورٍ بالخوفِ ، أو الذنب .

– الحدث الاجتماعي السير ذاتي في رواية (بوابة بغداد) :

إنَّ رواية (بوابة بغداد) اتكأت على حدثٍ اجتماعي ، وتاريخيّ مهم هو (حرب الخليج الأولى) التي شنتها الولايات المتحدة الأمريكيّة ، وحلفاؤُها على العراقِ سنة ١٩٩١م ؛ إثر غزوه للكويتِ ، ورفضِ قيادتِهِ السياسيّةِ تنفيذَ قراراتِ مجلسِ الأمنِ الدوليّ، والأممِ المتحدةِ التي تتضمنُ إنهاءَ حالةِ الغزوِ ، وسحبِ القواتِ العسكريّةِ العراقيّةِ إلى داخلِ حدودها ،

وهكذا بدأتِ الحربُ في يوم ١٩٩١/١/١٧ صفحتها الأولى بدكِ المدن العراقيّة بالطائرات والصواريخ الموجهةِ[١٦] ، وبدأتْ معها معاناةُ شعبٍ كُتِبَ عليه دفعُ ثمنِ سياساتِ حكوماتِهِ ، وكانَ الروائيُّ أحمدُ خلف واحداً من أفرادِ هذا الشعب المقموع الذي ألزمتهُ صنعةُ الكتابة التي لا يتقنُ غيرها أنْ يقيدَ هذه الأيام الداميات في دفترٍ كبير هي يومياتهُ عن الحرب ثم تحويلها إلى روايةٍ تترجمُ ضروبَ القلقِ ، والألمِ لشعبٍ مُلتاع.

لقد رصد أحمد خلف في رواياته ظاهرةً خطيرة أصبحتْ فيما بعد لازمة للمجتمع العراقي ، هي ظاهرة النزوح الجماعيّ القسريّ من المناطقِ التي تشهدُ نِزاعاً مسلحاً إلى مناطقَ أخرى آمنة ، لقد أفرزتْ (حرب الخليج الأولى) هذه الظاهرة ، ولَمّا تزلْ حَيّة ، ولدَتها الحروبُ الخارجية ، وتغذيها الحروب الداخلية ، ولعلَّ الروائيّ أحمد خلف له قصبُ السبقِ في رصدِ هذه الظاهرة ، والتعبير عنها روائياً .

وعَدَّ الباحث الأحداث المسرودة في (بوابة بغداد) أحداثاً اجتماعيةً قادمة من السيرة الذّاتية للمؤلفِ ؛ لأمرينِ اثنين هما :

الأول : أحمد خلف لا يروي عن الآخرين ، بل يروي من ذاكرتِهِ ، ويومِياتِهِ ، وهذا ما يجعلُ الروايةَ داخل تجربتِهِ الذَّاتية ، ولا تستثمرُ تجاربَ الآخرين ، وبذا تكتسبُ سمةَ الروايةِ السير ذاتيةِ بامتياز .

الآخر : ثمة إحالات داخل نصّ الرواية تحيلنا على حياة الروائي تعزز صدقيّة الأحداث المسرودة ، وأنّ الروائي عاشها في كل مرحلة من مراحل سيرتِهِ الذّاتيّة ، وكما في الترسيمة الآتية :

وقد ذكر البحث – سابقاً – في مُوجّه خارجيّ أنّ روايةَ (بوابة بغداد) هي بالأصل عبارة عن يوميات كتبها الروائي أثناء القصف الجوي على بغداد ، ووجد البحث مُوجّهاً داخل نصّ الرواية يتطابق مع الموجّه الخارجي ، يقول السارد/الشخصية المحورية : ((في ذلك السجل الكبير الذي أسميته : دفتر العائلة ، كتبتُ في إحدى صفحاتِهِ الطِوال عدداً من الملاحظات ، والآراء أشبه باليوميات التي استقرتْ أمام ناظري ، ولم أحذف ، أو أُغير منها عبارة واحدة في أعلى الصفحة الأولى كتبتُ عبارة تقول : (ذهب ماجد إلى الجبهة ، وأصبح البيتُ من دونه فارغاً عديم المعنى) ، وهامش آخر يقول : (١٩٩١/١/١٧ بدأ العدوان الذي تقوده الولايات المتحدة الأمريكية على العراق في الساعة الثانية بعد منتصف الليلة الماضية))[١٧] .

إنّ هذا النصّ يُعدّ إحالة واقعية تؤكّد صدقية الأحداث المروية في نصّ الرواية ، فالروائي أسقط نشاطه الكتابي على بطل روايته الذي وجدناه يكتب يومياته عن الحرب ، فضلاً عن التحديدات الزمنية الدقيقة (١٩٩١/١/١٧م بدأ العدوان ... في الساعة الثانية) التي تتطابق تطابقاً تاماً مع توقيتات الحرب في الواقع ، وينتقل إلى الصفحة الثالثة من يومياته ؛ ليحدد البداية المكانية بعد أنْ حَدّد البداية الزمانية ؛ لِيكتملَ الفضاء الزمكاني الذي انطلقتْ منه الشرارة الأولى للحرب ، يقول : ((أظنُّ العدوان بدأ على بغداد أولاً ، أو هكذا أتوقع ؛ لأنَّ ما من اعتداء يكون على بلدٍ ما إلا ويبدأُ على العاصمة قبل المدن الأُخرى))[١٨] .

وتستمرُّ الشخصية المحورية في حوارٍ داخلي يناقش تداعيات القصف الجويّ المستمر بلا هوادة بإسلوب الاستفهام والجواب، كأنّه يخاطبُ شخصاً حاضراً، بل يخاطبُ المجتمع الإنسانيّ كلَّه، لينقلَ له صورة الدّمار، الذي شَمِلَ مفاصلَ الحياةِ كلّها: المستشفيات، الاتصالات، المدن، البيوت، بل حتى المخابز التي تُقدِمُ رغيفاً يُدِيمُ الحياة، يقول : ((وها هي الطائرات تحلقُ مرةً، وثانية، وثالثة، وتقصفُ دون تمييز، تضربُ كلَّ شاهدةٍ، ومبنى، ودار، أتراهم يقصفون المدنَ كلّها ؟ أيقصفونَ البيوتَ ؟ أنتَ تقصدُ هل يحقُّ لهم أنْ يقتلوا كلّ شيءٍ يتحركُ على الأرضِ، ويدبُّ بينَ الأزقةِ، والشوارعِ، والبيوت ؟ نعم لقد أدركتُ سؤالي، ما المانع في أن يضربوا كلَّ شيءٍ، نعم كل شيءٍ ، انتظره إلى اليومِ المقبلِ وسترى، يا إلهي، لقد ضربوا مركز الاتصالات ، والمستشفيات .. أهذا صحيح ؟ نعم، لماذا لا تريدُ أنْ تُصدِّقَ،

إشرأبَّ رأسي نحو الزّقاقِ ثانية، رأيتُ عدداً من الصبيانِ يَجرون بعضهم وراء بعضٍ، بحثاً عن أفرانِ الصمون، ماذا هل ضربوا المخابزَ أيضاً؟)) [١٩] .

ويتبادل الحوار الداخلي مع الحوار الخارجي الأدوارَ في عرضِ ، ووصفِ حَدَثَ النزوح القسريّ ، إذ اتخذ الروائيّ من عائلتِهِ التي قامتْ بهذا الفعل أنموذجاً ، أو صورة مصغرة لآلاف العوائلِ العراقيّة التي نَزَحَتْ عن مناطقها إلى القرى ، والنواحي ، والقصباتِ هرباً من قنابلِ ، وصواريخ أمريكا ، وحلفائها ، أيْ: هرباً من الموتِ ، وتشبثاً بالحياةِ ، في حوارٍ دار بينَ (إبراهيم) ، وزوجته التي تصرخ بوجهه هلعاً ، وخوفاً على مصيرها ، ومصير أبنائها ، تقول :

((– ماذا تنتظر ، ما أبردك يا رجل ، هَيّا .

– إلى أينَ ؟ .

– لِنبحثَ عن مكانٍ آمنٍ .

ضحكتْ برغم مرارةِ المأساةِ ، في أنّها تبحث عن مكانٍ يقيها حدة الانفجارات الصاخبة .

– لِنذهب إلى أيّ مكانٍ خارج العاصمة)) [٢٠] .

ويتدخلُ التخيّلُ في صِياغةِ الحوارات الداخليّة للشخصيّة المحورية ، والحوارات الخارجية مع الشخصيات الأخرى المشاركة في الحدث ، لإعطاءِ هذا الحدث مساحة تعبيريّة واسعة ، ينقلُ الروائيّ عِبْرها أفكارَهُ ، ورؤاه بلغةٍ تتوزعُ بينَ الخبرِ ، والإنشاءِ ، إذنْ ((فلْتكنْ السيرةُ الذَّاتيّةِ (خبراً) بالمعنى البلاغي بما يُفهمُ إمكانية التدقيق فيما وراء النصّ ، ولتكنْ الروايةُ نوعاً من (الإنشاء) بالمعنى نفسِهِ ، إنَّ الإمكانيّةَ المنطقيّة لِدمجهما تفضي إلى دمج (الخبر) بـ(الإنشاء) ...)) [٢١] ؛ وبذلك يُنتَجُ نصّ تعبيرٌ مُشِعٌ هو الرواية السيرذاتيّة .

يعتمد الروائيّ على الحوار الداخلي للشخصيّة المحورية أكثر من اعتماده على أشكال السرد الأخرى ، فهو السارِدُ الوحيدُ المهيمنُ على مجرياتِ الأحداثِ ، وهو الموجودُ في كلّ مكانٍ ، والعالم بكلّ شيءٍ من بداية الروايةِ إلى نهايتها يوجّهُ دفةَ السردِ ، ويصفُ ، وينقلُ خطابَ الشخصياتِ في أغلبِ المراتِ التي تتوارى فيها المشاهدُ ، أو يغيبُ العرضُ بينَ الشخصياتِ ، وهو الذي يُرينا العالم من منظورِهِ الخاصِ ؛ لأنَّهُ سَيّدُ العالمِ السرديّ[٢٢] في الرواية .

يسوقُ (السارد/المؤلف) المبررات والأسباب التي قادتْ إلى نزوحِ عائلتهِ ، والعوائل الأخرى من بيوتها ، يقول ((جاءتْ مريمُ تتبعها ريم ، تحملُ الأولى (راديو) صغيراً يعملُ

بالبطارية ، تدفقَ صوتُ مذيعٍ ، له لهجةُ أحدِ الأقطار العربية: العراقُ سيوجّهُ ضربةً قاصمةً إلى تلِ أبيب . انتفضتْ الزوجةُ من مكانِها : اسمعْ ، اسمعْ ، هل سمعتَ ماذا يقولُ المذيعُ ؟ ولَمَّا لم أُجِب ، جاءتْ حاملةً حقيبتين إحداهما كبيرةً ، ألقتهما أمامي ... ، هل تظنينَ أنَّهم يتركوننا بعد اليومِ بسلام ؟ ... طيّب ، إذهبْ ، وأبحثْ لنا عن عربةٍ نستقلها ، ونهرب ... تقولينَ نهرب ، هكذا بوضوحٍ تام ؟ أنظر إلى عددٍ من البيوتِ في الزّقاق ، يبدو أنَّ أهليها منشغلون بترتيبِ حاجاتِهم كأنّهم في سفرٍ))[٢٣] .

لقد اشتركَ تخيّلُ السارِدِ ، وتخييلُ المتلقي في إنجاحِ مقاصدِ الروائيّ في روايتِهِ ، فتخيّلُ السارِدِ هو الذي يُضفي على الدّلالاتِ ظلالاً من المعاني التي تؤدي إلى تغيير الدّلالاتِ نفسها ، وتخييّلُ المتلقي هو الذي يستقبلُ تلك الدلالات برؤى مُغيّرةٍ لطبيعةِ ما هو مسرودٌ[٢٤] ، فأحمدُ خلفٍ يقرأُ هذه الحرب كونها واقعة تاريخية ذات أبعاد اجتماعية ، عاشها ، وتحسستْ حواسُهُ دقائقها ، وجزئياتَها قراءةً إبداعيةً تستنطقُ المحسوسَ ، واللامحسوس ، وتُعَوِّمُ الغاطسَ من المعاني ، والدّلالاتِ ، فـ((عينُ القصصيّ أحمد خلف لا يهمها المرئيّ ، بل إنّها تعبثُ باللامرئي ، وتجري وراءه ، هذا المبدعُ الخالق لأشيائِنا الصغيرةِ ، وناكر لاتفاقنا عليها ، ليس من سمتِهِ أن يقولَ ما نعرف ، لكنَّ سمتَهُ أن يُدْهشنا بما نعرفُ ، ولا نستطيعُ قولهُ كما يجب)) [٢٥] ، فإذا بحثنا عن أحمد خلفٍ سنجده في الشارع مع الناسِ ، يودعُ البيوت المهجورة ، ويُنصِتُ للجموع الغفيرة من شعبه ، وهم يركضونَ بما خَفَّ حَملُهُ نحو أرضٍ تقيهم الموتَ الذي تحمله طائراتُ ، وصوراريخُ الحلفاء، يقول في الرواية : ((وحيداً تركتُكَ أيُّها البيتُ ، يدورُ الفراغُ في حجراتِكَ المعتمة بلا نورٍ ، أو ضوء مصباحٍ ملأُ الدياجيرَ ، شأنُكَ شأن البيوتِ الأخرى التي كُتِبَ عليها الهجران ، الشوارع خالية ، أو تكادُ تخلو من المارّةِ ، بعضُ الأقدامِ تركضُ باتجاهاتٍ متعاكسةٍ ، مختلفةٍ ، كلٌّ واحدٍ يرمي الوصول إلى مبتغاه في الخلاصِ من سيلِ الحممِ ، والبراكينُ تتفجّر تحتَ الأقدامِ ، والشوارعُ تفتحُ أذرعَها للعابرينَ ، وعرباتُ النقل تمرقُ مسرعةً نحو ضواحي المدينةِ ، إلى أينَ تمضي هذه الجموعُ الغفيرةُ ، طلباً للخلاصِ من ضرباتٍ هوجاءَ تلاحقهم))[٢٦] .

إنّ سيرة الروائيّ في أيام الحرب لا تختلف عن سيرةِ الآخرينَ من أبناءِ شعبه الذينَ تقاسموا معه الموتَ ، والحياة ، فأصبحتْ روايتُهُ ((سيرةً لواحدٍ من الناسِ محدد الاسم والمصير ، وهي في اللحظة عينها سيرة لبشرٍ لا يعرفونه))[٢٧] ، فالحرب وما ينتج عنها من أعمال القصف المستمر والعنيف بالطائرات والصواريخ المُوجّهة كان سبباً في نزوحِ آلاف

العوائل البغدادية عن العاصمة هرباً ((من قصفٍ أعمى يتبع خطواتهم ، وهم يلوذونَ بالعرباتِ الخاصة ، وعربات النقل الكبيرة تحملُ أشياءَهم ، وحاجياتهم إلى دور ، وبيوتٍ ، ومدنٍ أُخرى))[٢٨] ، وقد شمل النزوح عائلة (السارد/الشخصية المحورية) التي تحيلنا على عائلة المؤلف التي نزحَتْ من بغداد إلى مدينة (مندلي) الحدودية في بيت أقارب زوجته أيامَ الحرب[*] ، وفي الروايةِ تبدأ رحلة النزوح ببحث (إبراهيم) عن سيارة أُجرة توصلهم إلى (مندلي) ، وبدأتْ الرحلة بحوار بين (إبراهيم) والسائق ، منه :

((– أنتَ من بغدادَ أمْ من مندلي ؟

– من بغداد .

– ولماذا تذهبُ إلى مندلي ؟

– لنا فيها أقارب يمكنُ تمضية بضعة أيامٍ معهم .

– بيتي أمامكم في بلدروز[*] .

– أشكرك جداً ، ولكن زوجتي تريدُ الوصولَ إلى بيت خالتها في مندلي)) [٢٩] .

انتهتْ الرحلة بالوصولِ إلى (مندلي) ، وبعد اهتداء الزوجةِ إلى بيتِ خالتها التي لم تزرها منذ عشرِ سنواتٍ استقبلتهم صبية في الحاديةِ عشرة من عمرها بصوتٍ حادٍّ :

((– ضيوفٌ على البابِ ، جاء رجلٌ ، وامرأة في الخمسين من العمرِ ، وفتاةٌ أخرى في الثلاثينَ ، وبزغ ولد في الخامسةِ عشرة من عمره ، وتجمعتْ العائلةُ كُلّها أمام البابِ ، وصاحَتْ المرأة مُرَحبة بنبرةِ اهتمام منادية على زوجتي :

– تعالي ، أدخلي ، لماذا تقفينَ عند البابِ ؟

– نحنُ مضطرون لمضايقتكم خالتي ؛ لأنّ القصفَ في بغدادَ مستمرٌ ، ولا ينقطعُ)) [٣٠].

في عملية عرض الأحداثِ ، ومعالجتها سرديّاً ينطلقُ السارد من مبدأ التتابع والتعاقب ، فيصورُ ما يكتنفها من سلبياتٍ ، وإيجابياتٍ وقعتْ على الشخصيّات ، وكيفَ أنّها تُؤَثّرُ عليها بالفعل ، فالقصفُ العنيفُ لبغدادِ كان سبباً في نزوحِ عائلةِ (إبراهيم) إسوة بباقي العوائلِ ، وكذلك كان سبباً في انقطاعِ الكهرباءِ ، والماء عن العاصمةِ ، وسبباً في شحةِ ، وغلاء المواد الغذائية ، والدواء ؛ مما اضطرَ (إبراهيم) إلى بيع (سجادة) [٣١] ؛ لتوفير ثمنِ الدواءِ لوالدهِ العجوز ، فضلاً عن التأثيرات النفسية السلبيةِ من معاناةٍ ، وفراقِ عائلتِهِ في (مندلي) ، والقلقِ عليهم ، مع هاجس الخوفِ من المصيرِ المجهولِ ، والبيت المُعرّض للقصفِ ، وقلة النقود ، يقول : (السارد/إبراهيم) في طريق عودتِهِ إلى بغداد قادماً من

(مندلي) بعد أن ترك عائلتَهُ هناك : ((كان الطريقُ موحشاً ... اعتصرني حزنٌ شديدٌ على ما آلَتْ إليهِ حالتي ، فقد شطرَ العدوانُ حياتنا شطرينِ ، كانَتْ لهفتي على حالةِ البيتِ تزدادُ كلما توغَلَتْ السيارةُ في الطريقِ نحو العاصمةِ ... ما الذي سأفعلَهُ لو وجدتُ البيتَ وقد دمرتْهُ القنابلُ ، والصواريخُ ، أو أصبح نهباً للصوصِ ، والسرّاقِ ... وازدادَ القلقُ كثافةً حينَ طلب السائقُ جمع أُجرة النقلِ ، فقد بدأتْ النقودُ تتناقصُ لديّ بوضوح ، يا للمستقبل الغامض الذي ينتظرني في طريقهِ إلى اشتدادِ الأزمةِ ... إذْ بدأتْ شحةُ المياهِ الشربِ في بغداد كلّها تزدادُ شدةً ، وحِدَّةً ، وانعدام الأملِ في عودةِ تيارِ الكهرباءِ ... الأشياءُ الضروريّةُ بدأتْ تختفي من السوقِ ، ويصعبُ الحصول عليها إلا بالطرقِ العسيرةِ ... كانَ أعسرُ من هذا كلّهِ توفيرَ الدَّواءِ للعجوز ، فقد ظلَّ يَئِنُّ طيلةَ الليلِ من شِدَّة آلامهِ ... استيقظَ والدي تحت ضغط الألم ، واستندَ إلى أحد مرفقيه ، وحَدَّقَ بي طويلاً ، ثم فتح فمَهُ في حالةٍ من جزعٍ : – **لماذا تتركني أموتُ دون علاجٍ ؟**))[٣٢] .

ويمضي (السارد/الشخصية) في سردِ معاناتِهِ في البحثِ عن دواءٍ في الصيدلياتِ ، والمستشفياتِ التي غَصّتْ بجرحى القصفِ ، فأبوهُ العجوز المريض[*] مثالٌ لملايينَ المرضى في العراقِ الذينَ عَزَّ عليهم الدواء في أيامِ الحربِ ، وما تلاها من سنوات الحصارِ العِجَافِ ، والتي هي نتيجة من نتائجِ حرب (الخليج الأولى) أيضاً .

الخاتمة

إذا كانتْ رواية (بوابة بغداد) للروائي العراقيّ أحمد خلف تنطوي على جزء من سيرتِهِ ، وتجربته الشخصية ، فإنَّ المعيار التصنيفي لها عَمَّنْ سواها يكمنُ فيما يتركهُ الروائي من علامات داخل الرواية ، وتُعَدُّ هذه العلامات علامات ما وراء السّردِ التي تعملُ على شرحِ ، وتفسيرِ ، وتأويلِ المبنى الحكائيّ في الروايةِ الذي يعملُ على إيجادِ مسافةٍ بينَ المُتخيّلِ ، والواقعيّ عِبرَ استثمارِ الذاكرة ، والمدوناتِ الوثائقيّةِ .

يكتسبُ نصُّ روايةِ (بوابة بغداد) خصوصيته من واقعيّةِ الأحداث ، والوقائع المرويّة في النصّ وصلتها بالروائيّ الذي تماهى مع شخصيّةِ السارِدِ الذي أوْكلَ إليهِ مهمةَ سردِ الأحداث بضميرِ المتكلم المنتمي إلى الذاتِ الجمعيّةِ ، إذْ تبيّن أنَّ الكتابةَ عن الذاتِ ليست استذكاراً لهذا الماضي الفردي (تجربة الروائي الشخصية) ، لكنها تجيءُ مُحَمَّلةً بالكثيرِ من رؤى الذاتِ الجمعيّةِ على المستوى القوميّ ، أو الوطنيّ ، أو الدينيّ ، وهو ما يمنحُ مسألة

الكتابةِ عن الذاتِ في هذه الرواية دافعيتها التي تحرصُ على بلورةِ قسماتِ (الأنا) في اتصالِهِ ، وانفصالهِ عن العالمِ المحيط .

إنّ استعمالَ الحاضرِ لروايةِ الماضي يهدفُ إلى تحيينِ مشكلةٍ معينةٍ ، أو حَدَثٍ ما أيْ جعله حاليّاً ، وما حادثةُ (حرب الخليج الأولى) ، وتماهيها في أحداثِ الروايةِ إلا كشفٌ عن واقعِ الحرب المأساوي ، وتداعياتها على المجتمعِ العراقيِ ، وكذلك نقل تجربة الروائي الشخصية (التي هي جزء من التجربة الجمعيّة لمجتمعه في زمن الحرب) في زمنها الماضي إلى بنيةَ نصّ الرواية في زمنها المفتوح ، والمتجدد بفعل القراءةِ التي لا تعملُ على تخليدِ الحدث ، أو الظاهرة الاجتماعيّةِ فحسب ، بل تمنحها أبعاداً تأويليّة ترفدُ الحدثَ بطاقةٍ حيويّةٍ مُتجددةٍ مع كلِّ قراءة .

Abstract

The Realizations of Social Biographic Event in Ahmed Khalaf's "Bawabat Baghdad" (The Gate of Baghdad)

Key Word : [realization – Biographic – Gate]

M.A. Candidate
Hussein Ali Yousif a'amouri
General Directory of Education on Diyala

SupervisorAsst.prof. Nawafil Younis Al Hamdani (Ph.D)
University of Diyala / College of Education for Humanities Sciences

The novel "Bawqbat Baghdad" (The Gate of Baghdad) by the Iraqi novelist Ahmed Khalaf was published by The House of General Cultural Affairs in Baghdad in 2001 and regarded as a mere novel but ,actually, it carried a part of the novelist biography. His biography is implemented in the plot which is based on imagination that extends to reality.

The novel includes the novelist biography during the Second Gulf War in 1991. The aim of the study is to discover the novelist biography that he kept in his diaries about this war, then, converted to a novel that he called "Bawqbat Baghdad" (The Gate of Baghdad).

الهوامش

(١)معجم المصطلحات ، نقد الرواية ، د. لطيف زيتوني : ٧٤ .

(٢)الحلم العظيم (رواية) ، أحمد خلف : ٢٠٣ .

(٣)الخراب الجميل (رواية) ، أحمد خلف : ١٤٩ .

(٤)معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة : ٥٢-٥٣ .

(٥)التجربة الشعرية العربية ، د. هشام محمد عبد الله : ٤٤ .

(٦)نظرية الأدب ، ويلك ووارين : ١٠٣ .

(٧)حوار أجراه الباحث مع الروائي (أحمد خلف) : ٢٠١٤/٣/١٥م .

(٨)بوابة بغداد (رواية) ، أحمد خلف : ٦ .

(٩)حوار مع القاصّ والروائي (أحمد خلف) ، أفراح شوقي : ٣/أغسطس/٢٠١٣م .

(١٠) ينظر : سرديات عراقية ، د. فاضل عبود التميمي : ٢١٤ .

(١١) ينظر : السيرة الذاتية ، الميثاق والتاريخ الأدبي ، فيليب لوجون : ٢٢-٢٣ .

(١٢) ينظر : المصدر نفسه : ٤٠-٤١ .

(١٣) ينظر : موسوعة السرد العربي ، د. عبد الله إبراهيم : ٤١٥/٢ .

(١٤) بوابة بغداد : ٥ .

(١٥) موسوعة السرد العربي : ٤١٧/٢ .

(١٦) البيروسترويكا وحرب الخليج الأولى ، أمين هويدي : ٥٧ .

(١٧) بوابة بغداد : ٨ .

(١٨) المصدر نفسه : ٩ .

(١٩) المصدر نفسه : ١٩-٢٠ .

(٢٠) المصدر نفسه : ٢٠ .

(٢١) موسوعة السرد العربي ، د. عبد الله إبراهيم : ٤١٥/٢ .

(٢٢) ينظر : قضايا الرواية العربية الجديدة ، سعيد يقطين : ١٠٤ .

(٢٣) بوابة بغداد : ٢٢ .

(٢٤) ينظر : سرديات عراقية ، د. فاضل عبود التميمي : ١٥٨ .

(٢٥) مقاربات نقدية في نصوص حداثية ، د. سمير الخليل : ٢٤٠ .

(٢٦) بوابة بغداد : ٢٥ .

(٢٧) وضع الرواية في حقل ثقافي غير روائي ، فيصل دَرّاج : ٢٣ .

(٢٨) بوابة بغداد : ٢٥ .

*- أكّد الروائي (أحمد خلف) واقعية هذا الحدث في اتصال هاتفي مع الباحث بتاريخ : ٢٠١٤/٧/١٥م.
*- (بلدروز) : بلدة مجاورة لبلدة (مندلي) الحدودية .
(٢٩) بوابة بغداد /: ٥١-٥٢ .
(٣٠) المصدر نفسه : ٥٥-٥٦ .
(٣١) المصدر نفسه : ١٠٧-١١٣ .
(٣٢) المصدر نفسه : ٦٧-٨٣ .
*- أكّد الروائي (أحمد خلف) واقعية مرض والده أيام (حرب الخليج الأولى) في اتصال هاتفي أجراه الباحث معه بتاريخ : ٢٠١٤/٧/٢٠م .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- بوابة بغداد ، أحمد خلف ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠٠١م.
- الحلم العظيم ، أحمد خلف ، دار المدى للثقافة والنشر ، دمشق ، ط١ ، ٢٠٠٩م .
- الخراب الجميل ، أحمد خلف ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، الجمهورية العراقية ، ط١ ، ١٩٨١م .

ثانياً : المراجع :

- البيروسترويكا وحرب الخليج الأولى ، أمين هويدي ، دار الشروق ، بيروت ، ط١، ١٩٩٧م .
- التجربة الشعرية العربية ، د. هشام محمد عبد الله ، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان – الأردن ، ط١ ، ٢٠١٣-٢٠١٤م .
- سرديات عراقية ، د. فاضل عبود التميمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٣م .
- السيرة الذاتية ، الميثاق والتاريخ ، فيليب لوجون ، تر : عمر حلي ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م .
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبة وأحمد كامل المهندس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٤م .
- مقاربات نقدية في نصوص حداثية ، د. سمير الخليل ، دار الجواهري ، بغداد ، ط١ ، ٢٠١٣م .

- موسوعة السرد العربي ، د. عبد الله إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ، طبعة جديدة موسعة ، ٢٠٠٨م .

نظرية الأدب ، ويلك ووارين ، تر : محيي الدين صبحي ، المؤسسة العربية، بيروت ، ط٣ ، ١٩٨٥م .

ثالثاً : الدوريات :

- حوار مع الروائي أحمد خلف ، أفراح شوقي ، جريدة الشرق الأوسط ، ع(١٢٦٦٧) ، ٣أغسطس ٢٠١٣م .
- وضع الرواية في حقل ثقافي غير روائي ، فيصل درَّاج ، فصول ، م١٦ ، ع٣ ، شتاء ١٩٩٧م .

رابعاً : الاتصالات والحوارات الشخصية :

- اتصال هاتفي مع الروائي أحمد خلف بتاريخ : ٢٠١٤/٧/١٥م .
- اتصال هاتفي مع الروائي أحمد خلف بتاريخ : ٢٠١٤/٧/٢٠م .
- حوار مع الروائي أحمد خلف ، اتحاد الأدباء ، بغداد : ٢٠١٤/٣/١٥م .